

الكتاب المقدس و الثورة الفرنسية

ان الاصلاح اذ أهدي الناسَ كتابا مقدسا مفتوحا في القرن السادس عشر كان يحاول الدخول الى كل ممالك أوروبا. وقد رحبت به بعض الدول بكل سرور على أنه رسول السماء، ولكن في بلدان أخرى أفلحت البابوية الى حد كبير في منع دخوله، وبذلك كادت أنوار معرفة كتاب الله تبعد تماماً بتأثيراتها السامية. ومع أن النور وجد بابا مفتوحاً في فرنسا فان العقول المظلمة لم تدركه. وظل الحق والضلال يتصارعان على السيادة طوال قرون. وأخيرا انتصر الشر وأقصى حق السماء بعيدا : « هذه هي الدينونة أن النور قد جاء الى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور » (يوحنا ٣: ١٩). وقد تُركت الامة لتحصد ثمار المسلك الذي اختارته لنفسها. فرُفعت روادع روح الله عن ذلك الشعب الذي ازدري بهبة نعمته. وسُمح للشر أن يتفاقم ويستشري. ورأى العالم كله عواقب الاصرار على رفض النور.

بلغت الحرب التي ثارت طوال قرون عدة ضد الكتاب المقدس في فرنسا غايتها القصوى في مشاهد الثورة. لقد كانت تلك الثورة الهائلة هي النتيجة الشرعية لكبت روما وكبحها ومصادرتها الكتب المقدسة، (انظر التذييل). فقدمت اعظم مثال مدهش رآه العالم لما آلت اليه السياسة البابوية، وأظهرت العواقب

التي كان تعليم الكنيسة البابوية يؤدّي إليها في حقبة من الزمن تزيد عن ألف عام.

كان الأنبياء قد تنبأوا عن قمع الكتب المقدسة وكتبها في سني السيادة البابوية، كما أن الرائي يشير أيضا الى العواقب الهائلة التي كانت ستعصف بفرنسا على الخصوص نتيجة لسيادة « انسان الخطيئة ».

قال ملاك الرب : « سيدوسون المدينة المقدسة اثنين وأربعين شهرا. وسأعطي لشاهديّ فيتنبأان الفا ومئتين وستين يوما لابسين مسوحا... ومتى تمما شهادتهما فالوحش الصاعد من الهاوية سيصنع معهما حربا ويغلبهما ويقتلهما. وتكون جثتاها على شارع المدينة العظيمة التي تدعى روحيا سدوم ومصر حيث صلب ربنا ايضا... ويشمت بهما الساكنون على الارض ويتهللون ويرسلون هدايا بعضهم لبعض لان هذين النبيين كانا قد عذبا الساكنين على الأرض ثم بعد الثلاثة الايام والنصف دخل فيهما روح حياة من الله فوقفا على أرجلها ووقع خوف عظيم على الذين كانوا ينظرونهما » (رؤيا ١١ : ٢ – ١١).

ان الفترتين المذكورتين هنا – « اثنين وأربعين شهرا » « وألف ومئتين وستين يوما » هما شيء واحد وتمثلان كلتاهما الزمن الذي كانت كنيسة المسيح ستقاسي فيه الاضطهاد من روما. ان الاف والمئتين والستين سنة التي كانت فيها السيادة للبابوية بدأت في عام ٥٣٨ للميلاد، وكانت ستنتهي في عام ١٧٩٨، (انظر التذييل). ففي ذلك التاريخ دخل جيش فرنسي روما وأسر البابا الذي مات في منفاه. ومع أنه كان قد تم اختيار بابا جديد توأ بعد ذلك فان السلطة البابوية لم تستطع قط منذ ذلك الوقت أن تستخدم القوة التي كانت لها من قبل.

يتنبأ في المسوح

على أن اضطهاد الكنيسة لم يظل قائما مدى فترة الـ ١٢٦٠ سنة كلها. فالله رحمة منه بشعبه قصر أيام تلك البلوى المحرقة. والمخلص حينما تنبأ عن « الضيقة العظيمة » التي ستحل بالكنيسة قال : « ولو لم تقصر تلك الأيام لم يخلص جسد. ولكن لاجل المختارين تقصر تلك الأيام » (متى ٢٤ : ٢٢). فبفضل تأثير الاصلاح انتهت الاضطهادات قبل عام ١٧٩٨.

أما في ما يختص بدينك الشاهدين فالنبي يعلن قائلا : « هذان هما الزيتونتان والمنارتان القائمتان أمام رب الارض ». وقد قال صاحب المزامير : « سراج لرجلي كلامك ونور لسبيلي » (رؤيا ١١ : ٤؛ مزمور ١١٩ : ١٠٥) فالشاهدان يرمزان الى كتب العهد القديم والعهد الجديد. فكلاهما شهادة هامة لاصل شريعة الله ودوامها. وكلاهما يشهدان لتدبير الخلاص. فرموز العهد القديم وذبائحه ونبواته تشير الى مخلص آت في المستقبل. وأناجيل العهد الجديد ورسائله تخبرنا عن مخلص قد أتى بالطريقة ذاتها التي أنبئ بها عنه بواسطة الرموز والنبوات:

« يتنبأ الفا ومثتين وستين يوما لابسين مسوحا ». وطوال أغلب سني تلك المدة ظل شاهدا الله محجوبين. لقد حاول السلطان البابوي أن يحجب كلمة الحق عن الشعب وأقام بدلا منها شهودا كذبة لكي يناقضوا شهادتها، (انظر التذييل). وعندما صادرت السلطات الزمنية والدينية الكتاب المقدس وعكست شهادته وأفسدت وبذلت أقصى الجهود التي يستطيع الناس والشياطين أن يبتكروها لتحويل اذهان الشعب عن تلك الشهادة، وعندما طورد اولئك الذين تجرأوا على اعلان حقائقه المقدسة أو أسلموا وعذبوا أو دفنوا في زرنانات في السجون أو استشهدوا من أجل ايمانهم أو أجبروا على الهروب الى حصون الجبال ومغاوير الارض وشقوقها، حينئذ تنبأ الشاهدان الامينان لابسين مسوحا. الا انهما ظللا يؤديان شهادتهما طوال مدة الـ ١٢٦٠ سنة. ففي اظلم العصور كان

يوجد رجال امناء أحبوا كلمة الله وكانوا غيورين على مجده. هؤلاء العبيد المخلصون الامناء أعطوا الحكمة والقوة والسلطان ليعلموا حق الله طوال تلك السنين.

« وان كان أحد يريد أن يؤذيها تخرج نار من فمهما وتأكل اعداءهما وان كان احد يريد أن يؤذيها فهكذا لا بد أن يقتل » (رؤيا ١١ : ٥). لا يمكن أن يدوس انسان كلمة الله من دون قصاص. ان معنى هذا الانذار المخيف موضح في الاصحاح الاخير من سفر الرؤيا حيث يقول الرائي : « لانني أشهد لكل من يسمع اقوال نبوة هذا الكتاب ان كان احد يزيد على هذا يزيد الله عليه الضربات المكتوبة في هذا الكتاب. وان كان أحد يحذف من اقوال كتاب هذه النبوة يحذف الله نصيبه من سفر الحياة ومن المدينة المقدسة ومن المكتوب في هذا الكتاب » (رؤيا ٢٢ : ١٨ و ١٩).

نتائج العصيان على الله

هكذا كانت الانذارات التي اعطاها الله لمنع الناس من تغيير ما قد أعلنه أو أمر به، أو من تحويره بطريقة ما. هذه الانذارات الخطيرة تنطبق على كل من يستخدمون نفوذهم في جعل الناس يستخفون بشريعة الله. وينبغي أن تخيف وترعب الذين بكل طلاقة يعلنون انه لا ضير من كوننا نطيع شريعة الله أو نعصاها. فكل الذين يعظمون آراءهم فوق الوحي الالهي او يحاولون تحوير المعنى الواضح الصريح للكلمة الالهية لتتفق مع أهوائهم الخاصة او لتتماشى مع العالم يوقعون انفسهم تحت مسؤولية هائلة مخيفة. ان الكلمة المكتوبة أي شريعة الله ستزن خلق كل انسان وتدين كل من يعلن عنه هذا المحك الذي لا يخطئ، أنه ناقص.

« ومتى تمما شاهدتهما » (وفيما هما يتممان شهادتهما). ان المدة التي كان فيها ذاك الشاهدان سيتنبآن لابسين مسوحا انتهت في عام ١٧٩٨. واذ كانا يقتربان من نهاية عملهما في الخفاء كانت ستثور حرب عليهما من القوة التي يمثلها « الوحش الصاعد من الهاوية ». ففي كثير من دول

أوروبا كانت القوى المتحكمة في الكنيسة وفي الدولة على مدى قرون طويلة هي تلك التي كان الشيطان مسيطراً عليها عن طريق البابوية. ولكننا هنا نرى مظهرًا جديدًا من مظاهر قوة الشيطان.

كانت سياسة روما، تحت ستار الاقرار بتوقيعها للكتاب المقدس، ان تبقيه مغلقًا عليه في لغة يجهلها الشعب ومحجوبًا عن الانظار. وتحت حكمها تنبأ الشاهدان « لابسين مسوحا ». لكنّ قوة اخرى – هي قوة الوحش الصاعد من الهاوية – كانت موشكة ان تعلن الحرب على كلمة الله.

ثم ان « المدينة العظيمة » التي قتل الشاهدان في شوارعها وفيها كانت جثتها تدعى « روحيا مصر ». من بين كل الأمم المذكورة في تاريخ الكتاب المقدس نجد ان مصر هي أكثرها جرأة في انكار وجود الاله الحي ومقاومة اومراه. انه لم يجرؤ اي ملك على ان يجاهر بالعدوان على سلطة السماء في ترفع وكبرياء مثلما فعل ملك مصر. فعندما ابغ موسى الى فرعون الرسالة باسم الرب اجاب الملك بكل غطرسة وتشامخ قائلا : « من هو الرب حتى اسمع لقوله فاطلق اسرائيل. لا اعرف الرب واسرائيل لا اطلقه » (خروج ٥: ٢). هذا هو الالحاد، والامة التي ترمز اليها مصر ستُقدم على انكار شبيه بهذا اذ تنكر مطالب الله الحي، وستُبدى روحا شبيهة بتلك الروح المشبعة بعدم الايمان والتحدي. ثم ان « المدينة العظيمة » مشبهة ايضا « روحيا » بسدوم. ان فساد سدوم الظاهر في تعديها شريعة الله ظهر على الخصوص في دعارتها. وهذه خطيئة ستكون أيضاً من السمات البارزة لتلك الامة التي تنطبق عليها أوصاف هذه الآية.

وتبعًا لما ورد في أقوال النبي قبل عام ١٧٩٨ بقليل ستقوم قوة نابعة من الشيطان ولها صفاته لتحارب الكتاب المقدس. ففي البلاد التي ستبكم فيها شهادة شاهديّ الله ستتنفسي دعارة سدوم وإلحاد فرعون.

اتمام حرفي للنبوة

هذه النبوة تمت حرفيا وبطريقة مذهشة في تاريخ فرنسا. ففي أثناء الثورة التي نشبت في عام ١٧٩٣ « لأول مرة سمع العالم عن جمع من الناس؛ ولدوا وتهذبوا في أحضان المدنية وكانوا يدعون أن لهم الحق في أن يسوسوا دولة من أجمل دول أوروبا، يرفعون أصواتهم مجاهرين بانكار أعظم حق مقدس تقبله نفس الانسان، ويُجمعون على انكار الاعتقاد بالله وبعبادته » (٢٣٩). « ان فرنسا هي الدولة الوحيدة في العالم التي سُجل عليها أنها كأمة رفعت يدها في تحد وتمرد ضد خالق الكون. لقد وجد ولا يزال يوجد كثيرون من المجدفين والملحدين في انجلترا والمانيا وأسبانيا وفي كل مكان، لكنّ فرنسا تقف وحدها في تاريخ العالم كالدولة الوحيدة التي بموجب قرار جمعيتها التشريعية أعلنت أنه لا يوجد إله والتي قبل كل سكانها في العاصمة وأكثرية الناس في أماكن أخرى ذلك الاعلان وهم يرقصون بفرح عظيم، سواء في ذلك الرجال والنساء » (٢٤٠).

وتميزت فرنسا كذلك بتلك السمة التي اشتهرت بها سدوم، ففي أثناء الثورة ظهرت حالة انحطاط وفساد خلقي شبيهة الحالة التي استمطرت جامات الغضب على مدن السهل. وها هو المؤرخ يعرض إلحاد فرنسا ودعارتها جنبا الى جنب كما هما مقدمان في النبوة فيقول : « وقد ارتبط بهذه القوانين التي تمس الدين ذاك الذي حوّل وحدة الزواج — وهو اقدس ارتباط يمكن أن يكونه بنو الإنسان ويؤدي دوامه الى زيادة التماسك في المجتمع — الى حالة عقد مدني مؤقت يُتاح لرجل وامرأة أن يرتبطا به أو يفسخاه متى أرادا ... فلو أن الشياطين عملوا وكدوا لاستنباط وسيلة تؤدي حتما الى تدمير كل ما هو جليل أو وقور أو جميل أو ثابت في الحياة البيئية، وللحصول في الوقت نفسه على ضمان أن الضرر الذي يقصدون أن يخلقه سدوم من جيل الى جيل، لما استطاعوا أن يستنبطوا خطة أفعل من انحطاط الزواج... أن صوفي أرنولت، وهي ممثلة

اشتهرت بسرعة خاطرها ونكاتها المستملحة، وصفت الزواج الذي أقرته الجمهورية الفرنسية بأنه « سر الزنا » (٢٤١).

عداوة ضد المسيح

« حيث صلب ربنا أيضا ». هذا التحديد الوارد في النبوة تتمته فرنسا أيضا. فلم تبدُ العداوة للمسيح على أشدها في أمة ما كما ظهرت في فرنسا، ولم يجابه الحق ولا اصطدام بعداوة ومقاومة مرة وقاسية كما حدث في فرنسا. ففي الاضطهاد الذي أثارته فرنسا ضد المعترفين بالانجيل صلبت المسيح في شخص تلاميذه.

ومن جيل الى جيل أهرقت دماء القديسين. فاذ كان الولدنسيون يبذلون حياتهم على جبال بيدمونت « لأجل كلمة الله ولأجل شهادة يسوع المسيح » قدم أخوتهم الالبيجنسيون شهادة مماثلة في فرنسا. وفي أيام الاصلاح كان تلاميذه يساقون الى الموت بعد عذابات هائلة. فالملك والنبلاء والسيدات الشريفات والعذارى الرقيقات، فخر الأمة وفرسانها كانوا جميعا يتمتعون انظارهم برؤية عذابات شهداء يسوع. والهيجونوت الشجعان الذين كانوا يحاربون لاجل استخلاص تلك الحقوق التي يعتز بها ويقدها كل قلب بشري سُفكت دماؤهم في كثير من المعارك الحامية الوطيس. لقد اعتبر البروتستانت طريدي العدالة، وكانت تعطى جوائز لمن يأتون برؤوسهم، فكانوا يطاردون كما تطارد الوحوش.

ان « الكنيسة في البرية »، البقية القليلة الباقية من ذرية المسيحيين الاولين الذين ظلوا باقين في فرنسا في القرن الثامن عشر والذين كانوا يختبئون في جبال الجنوب، ظلوا على ولائهم لايمان آبائهم. واذ كانوا يتجرأون على الاجتماع على سفح جبل أو في أرض سبخة منعزلة كان الجنود والفرسان يطاردونهم ويوثقونهم الى السفن ليظلوا أرقاء فيها مدى الحياة. فاولئك الذين كانوا أنقى الناس في فرنسا وأعظمهم ثقافة وذكاء وعبقرية كانوا يكبلون



الكتاب الذي حرمت الكنيسة قراءته

ويعذبون عذابات رهيبية ويحشرون بين اللصوص والقتلة (٢٤٢). وآخرون ممن كانوا يعاملون ببعض الرحمة كانوا يقتلون رميا بالرصاص من دون أن يرثي لهم أحد حين كانوا، وهم عزّل من السلاح وعاجزون تماما، يجثون على ركبهم للصلاة. وكان مئات من الرجال الطاعنين في السن والنساء اللواتي لا حيلة لهن في الدفاع عن أنفسهن والاولاد الابرياء يتركون قتلى على الارض في مكان اجتماعهم للصلاة. واذ كان بعضهم يعبرون سفوح الجبال أو الغابات لم يكن أمرا غير مألوف أن يجدوا « بعد كل أربع خطوات جثا مبعثرة في المروج أو أجساما معلقة على الاشجار ». فأرضهم التي أفرها السيف أو الناس أو النار « استحالت الى بيرة واسعة كثيبة ». « هذه الفظائع سنّت لها قوانين ... ليس في عصر مظلم بل في الفترة الزاهرة الجميلة في ابان حكم الملك لويس الرابع عشر، فلقد انتشر العلم حينئذك وازدهرت العلوم المختلفة، وكان علماء اللاهوت في البلاط الملكي وفي العاصمة رجالا علماء وفصحاء، وكانوا يتظاهرون بالوداعة والاحسان وحب الخير » (٢٤٣).

أبشع الجرائم

لكنّ مذبحه سان بارثولوميو سطرت خطوطا أشد سوادا من دجى الليل في سجلات الجرائم وكانت أرهب عمل يمكن أن ترتكبه الشياطين مدى العصور المخيفة. ولا يزال العالم يذكر بخوف ورعب عظيم مشاهد ذلك الهجوم الدال على النذالة والقسوة والجبن. فملك فرنسا أباح ذلك العمل الرهيب تحت الحاح كهنة روما وأساقفتها. وقد كانت اشارة البدء في تلك المذبحة دقائق الاجراس في سكون الليل. ان آلافا من البروتستانت اذ كانوا نائمين باطمئنان وسكون في بيوتهم مستندين الى عهد الشرف بالامان من فم مليكهم سُحبوا بلا سابق انذار وقتلوا بكل قسوة من دون أن يعطف عليهم قلب انسان.

وكما كان المسيح هو القائد غير المنظور لشعبه في خروجهم من عبودية مصر، كذلك كان الشيطان هو قائد رعاياه غير المنظور في هذا العمل الرهيب الذي فيه تضاعف عدد شهداء الحق. وقد ظلت المذبحة قائمة في باريس سبعة أيام كاملة، وفي خلال الثلاثة أيام الاولى زاد غضب اولئك القاتلين واهتياجهم الى حد فاق كل تصور. ولم تقتصر تلك المذبحة على المدينة وحدها، فالملك أصدر أمرا خاصا بأن تمتد لتشمل كل المقاطعات والمدن حيث يعيش البروتستانت. ولم ترع حرمة السن أو الجنس. فلم يبقوا على طفل بريء ولا على رجل أشيب. لقد قُتل الاشراف والفلاحون، الكبار والصغار، والامهات وأطفالهن معا. وظلت تلك المذبحة قائمة في جميع أنحاء فرنسا شهرين كاملين، فهلك من زهرة الامة وأفضل رعاياها سبعون ألفا.

مظاهر التعظم

« ولما بلغت أنباء تلك المذبحة أسماع روما ابتهج رجال الاكليروس ابتهاجا فاق كل الحدود. وقد كافأ كاردينال اللورين الرسول الذي حمل اليه ذلك الخبر بأن أعطاه ألف جنيه ذهباً. ودوت طلقات مدافع سان أنجيلو فرحا وابتهاجا، كما تجاوزت أصوات نواقيس الكنائس من كل مكان، وأحالت شعلات النار الليل البهيم الى نهار، كما سار البابا غريغوريوس الثالث عشر في موكب طويل يحف به الكرادلة وغيرهم من أحرار الاكليروس الى كنيسة سان لويس حيث كان كردينال اللورين ينشد نشيد الشكر، وقد سَكَّ وسام لاهياء ذكرى تلك المذبحة، ولا تزال توجد في الفاتيكان ثلاث صور لفاساري في وصف الهجوم على الاميرال، والملك وهو مجتمع مع المجلس يتأمرون لتدبير تلك المذبحة، والمذبحة نفسها. وقد أرسل غريغوريوس الى شارل الوردة الذهبية، وبعد المذبحة بأربعة أشهر... كان يصغي بكل سرور وبشاشة الى عظة كان يلقيها كاهن فرنسي... تكلم فيها عن " ذلك اليوم المفعم سعادة وفرحا عندما وصلت

الآخبار الى الاب الاقدس فذهب في جلال مقدس ليشكر الله والقديس لويس " « (٢٤٤) .

ان الروح الشريرة نفسها التي سيطرت على من قاموا بتدبير مذبحه سان بارثولوميو كانت هي الروح السائدة في مشاهد الثورة. فلقد أعلن أن يسوع المسيح دجال، وكانت صيحات الملحنين الفرنسيين تهتف في مزاح قاتلة : «اسحقوا ذلك الحقير» وكانوا يقصدون المسيح. لقد سار التجديف المتحدي للسماء والشر الرجس يدا بيد، وقد رُفِع وتمجد أحط الناس الاندال. وشر وحوش الخلاعة والقسوة والوحشية والرذيلة حملوا فوق الاعناق. وفي كل هذا أظهر الناس أعظم الولاء للشيطان. بينما المسيح الذي يمتاز بالحق والطهارة والمحبة المنكرة ذاتها عُلق على صليب.

« الوحش الصاعد من الهاوية سيصنع معهما حربا ويغلبهما ويقتلهما ». ان قوة الاتحاد التي سادت على فرنسا في أثناء الثورة وحكم الرعب أثارت ضد الله وكلمته المقدسة حربا هائلة لم يسبق للعالم أن رأى لها مثيلا. لقد أبطل المجلس القومي أو الجمعية الوطنية عبادة الله، والكتب المقدسة جمعت وأحرقت على مرأى من الناس بكل احتقار وازدراء. ولقد داس الناس شريعة الله تحت أقدامهم وألغيت كل قوانين الكتاب المقدس، وأبطل يوم الراحة الاسبوعي، واستعاضوا عنه بجعل اليوم العاشر يوما للطرب والتجديف. وُحرِم إجراء فريضتي العماد والعشاء الرباني. وكتبت فوق المدافن اعلانات بخط واضح تفيد أن الموت نوم أبدي.

ولقد قيل أن مخافة الله أبعد ما تكون عن رأس الحكمة بحيث أنها صارت رأس الجهالة. وحُطِّرت كل الخدمات الدينية باستثناء خدمات الحرية والدولة. «وقد أتى باسقف باريس الشرعي ليمثل الجانب الاكبر في أوقح مهزلة تثير الشكوك مُثلتُ قط أمام هيئة قومية... لقد جيء به في موكب حافل ليعلن أمام الجمعية أن الدين الذي قد علم به تلك السنين الطوال كان بكل معاني الكلمة حيلة من حيل الكهنوت ليس لها أساس لا في التاريخ

ولا في الحق المقدس. وفي عبارات خطيرة حاسمة أنكر وجود الله الذي كان قد كرس نفسه لخدمته، ثم قال انه في مستقبل أيامه سيكرس نفسه للولاء للحرية والمساواة والفضيلة وعلوم الادب. ثم وضع أوسمته الاسقفية على المنضدة، وبعد ذلك عانقه رئيس الجمعية. واتبع كثيرون من الكهنة المرتدين مثال الاسقف « (٢٤٥).

« ويشمت بهما الساكنون على الارض ويتهللون ويرسلون هدايا بعضهم لبعض لان هذين النبيين كانا قد عذبا الساكنين على الارض ». ان فرنسا الملحدة كانت قد أبكمت صوت التوبيخ الذي كان ينطق به ذاك الشاهدان. لقد انطرحت كلمة الحق مية في الشوارع، ولذلك فرح وتهلل كل من كانوا يمقتون نواهي شريعة الله وأوامرها. لقد جاهر الناس بتحديهم لملك السماء. وكالخطأ من قديم الزمان صاحوا قائلين : « كيف يعلم الله ؟ وهل عند العلي معرفة ؟ » (مزمور ٧٣ : ١١).

جرأة مجدفة

وبجرأة وتجديف لا يكاد الانسان يصدقهما قال أحد كهنة النظام الجديد : «يا الله ان كنت موجوداً انتقم لاسمك الذي أهين. اني أتحداك ! أراك صامتا. انك لا تجرؤ على أن تمطرنا بصواعقك أو رعودك. من ذا الذي يصدق بعد هذا أنك موجود ؟ » (٢٤٦). ما أعظم هذا من صدى لقول فرعون : « من هو الرب حتى أسمع لقوله ؟ » لا أعرف الرب !

« قال الجاهل في قلبه ليس اله » (مزمور ١٤ : ١). والرب يعلن عمن يحرفون الحق قائلا : « حمقهم سيكون واضحا للجميع » (٢ تيموثاوس ٣ : ٩). فبعدها نبذت فرنسا عبادة الاله الحي « العلي المرتفع ساكن الابد » بزمن قصير انحدرت الى عبادة الاوثان المنحطة المرذولة اذ عبد الناس إلهة العقل في شخص امرأة خليعة متهتكة. وذلك في الجمعية التي تمثل الامة وبواسطة أعلى سلطاتها المدنية والتشريعية ! وقد قال المؤرخ :

« ثمة احتفال لا مثيل له في السخافة الممزوجة بالاحاد ثم في عصر الجنون هذا. لقد فتحت أبواب المؤتمر على مصارعها لدخول فرقة موسيقية كان يسير في مقدمها هيئة رجال المجلس البلدي الذين دخلوا في موكب وقور ينشدون نشيدا في تمجيد الحرية وهم يحرسون أنثى محجة لتكون موضوع عبادتهم مستقبلا وسموها إلهة العقل. فلما أتى بها الى داخل الحاجز رُفِع عنها خمارها باحتفال رسمي عظيم ووضعت على يمين الرئيس، في حين أن جميع الناس كانوا يعرفون أنها احدى راقصات دار الاوبرا ... هذه الشخصية، التي تعتبر أنسب ممثل لذلك العقل الذي عبده رجال الجمعية الوطنية الفرنسية، هي التي خصتها فرنسا بالعبادة الجهارية والولاء.

يعبدون الالهة العقل

« كان لهذا المجون الالهادي السخيف طراز خاص، فعمد الناس في طول البلاد وعرضها الى تنصيب إلهة العقل حيثما رغبوا في أن يبينوا أنهم أنداد لكل القمم التي تسمو اليها الثورة » (٢٤٧).

وقال الخطيب الذي قدم عبادة العقل : « أيها المشترعون ! لقد أفسح التعصب المجال للعقل. ان عينيه الضعيفتين لم تقويا على مواجهة النور الباهر. ولقد اجتمع اليوم حشد عظيم تحت تلك الاقبية القوطية التي تردد للمرة الاولى صدى صوت الحق. هنا يحتفي الفرنسيون بالعبادة الحقيقية الوحيدة: عبادة الحرية وعبادة العقل. وهنا نبتهل طالبين نجاح قوات جيش الجمهورية. هناك نبتذ الاصنام الجامدة ونستعيز عنها بالعقل، هذه الصورة الحية التي هي تحفة الطبيعة » (٢٤٨).

وعندما أتى بالالاهة الى الجمعية أمسك الخطيب بيدها والتفت الى الجمع وقال : « أيها الناس، لا ترتعوا بعد الآن أمام رعود إله عاجز خلقته مخاوفكم. ومن الآن لا تعترفوا باله آخر غير العقل. وها أنا أقدم اليكم أكرم تمثال له وأنقاه. فاذا

أردتم أن تكون لكم أصنام فقدموا ذبائحكم أمام مثل هذه... اسقط أمام مجلس الحرية يا برقع العقل... !

« بعدما عانق الرئيس الالاهة أركبت في عربة فخمة وسار في معيتها جمهور غفير الى كاتدرائية نوتردام لتحتل مكان الله. وهناك رُفعت على المذبح العالي وتقبّلت العبادة من كل الحاضرين » (٢٤٩).

وتبع ذلك بوقت قصير حرق الكتاب المقدس جهارا. وفي احدى المرات دخلت الجمعية الشعبية للمتحف قاعة المجلس البلدي وصاح رجالها قائلين : «ليحيَ العقل ! » وهم يحملون على رأس سارية كومة كتب نصف محترقة، منها كتب صلوات وكتب القداس وكتاب العهد القديم والعهد الجديد، « دلالة على احتراق كل الحماقات والسخافات والكلام الفارغ التي جعلوا الجنس البشري يرتكبها » (٢٥٠)، على حد قول الرئيس.

فرنسا تقاوم الاصلاح

ان البابوية هي التي بدأت العمل الذي يكمله الالحاد الآن. وسياسة روما هي التي خلقت تلك الظروف الاجتماعية والسياسية والدينية التي كانت تسرع بفرنسا الى الدمار. وقد قال احد الكتاب عن تلك الاعمال المتطرفة ان تبعثها تقع على العرش وعلى الكنيسة (انظر التذييل). ولكنها على وجه التحديد تقع على عاتق الكنيسة. لقد سممت البابوية عقول الملوك ضد الاصلاح بحجة أنه عدو للتاج وعنصر للنزاع يقضي على سلامة الامة ووافقها. واستخدمت عبقرية روما وسائلها لتضرم نيران أشد ضروب القسوة والاضطهاد المثير الذي أثاره العرش.

ولّت روح الحرية بذهاب الكتاب المقدس. فأينما قبل الناس الانجيل استيقظت عقولهم. فبدأوا يطرحون عنهم أصفاد الجهل والرذيلة والخرافات التي استرقتهم طويلا. وبدأوا يفكرون ويعملون كما يعمل عقلاء الناس. ورأى الملوك ذلك فارتعدوا فرقا خوفا من زوال ظلمهم واستبدادهم.

ولم تتباطأ روما في اضرار حسدهم ومخاوفهم. لقد قال البابا لحاكم فرنسا في عام ١٥٢٥ : « ان هذا الجنون (البروتستانتية) لن يكتفي بازعاج الدين وتدميره، ولكنه مقبل على تدمير كل الرياسات والاشراف والقوانين والأنظمة والمقامات أيضا » (٢٥١). وبعد ذلك بسنوات قليلة أنذر أحد سفراء البابا الملك قائلاً : « لا تضل يا مولاي. ان البروتستانت سيقبلون ويدمرون كل النظم المدنية والدينية... ان العرش مهدد بالخطر، كالمذبح سواء بسواء... فإدخال دين جديد سيتبعه حتماً إدخال حكومة جديدة ». (٢٥٢). واستغاث اللاهوتيون بتعصبات الشعب فأعلنوا أن العقيدة البروتستانتية «تستميل الناس الى قبول البدع والجهل، وتسلب الملك محبة رعاياه وولاءهم، وتدمر الكنيسة والدولة ». وهكذا أفلحت روما في تعبئة فرنسا لمحاربة الاصلاح. « لقد جُرد سيف الاضطهاد في فرنسا أولاً لمعاوضة العرش وحفظ النبلاء والابقاء على القوانين » (٢٥٣).

سياسة قاتلة

ما أقل ما كان يعرف حكام البلاد مما يخبئه لهم الغيب من نتائج تلك السياسة المشؤومة الخرقاء ! كان الكتاب المقدس سيغرس في عقول الشعب وقلوبهم مبادئ العدالة والاعتدال والحق والمساواة والاحسان وحب الخير التي هي حجر الزاوية في بناء نجاح الامة ورخائها وازدهارها : « البر يرفع شأن الأمة »، وبه « يثبت الكرسي » (أمثال ١٤ : ٣٤ ؛ ١٦ : ١٢). « ويكون صنع العدل سلاماً »، ويؤد «سكوناً وطمأنينة الى الابد» (اشعيا ٣٢ : ١٧). ومن يطيع شريعة الله لا بد أن يحترم ويطيع شرائع بلاده. ومن يخاف الله يكرم الملك وهو يستخدم كل سلطاته العادلة الشرعية. لكن فرنسا التعسة حرّمت اقتناء الكتاب المقدس وحرمت ونفت كل تلاميذه. فمن قرن الى قرن حدث ان الرجال ذوي المبادئ السلمية المستقيمة والذكاء الخارق والخلق القويم، الذين اوتوا شجاعة جعلتهم يجاهرون باقتناعاتهم وايماننا اعانهم على

احتمال الآلام لاجل الحق، أُرهِقُوا كأرقاء في السفن أو هلكوا حرقاً بالنار أو بلي لحمهم وعظامهم في ظلمات السجون. وقد وجد ألوف وألوف أن النجاة في الهروب، وظلت الحال هكذا مدى ٢٥٠ سنة بعد بدء الاصلاح.

هروب أنبل المواطنين الفرنسيين

« وندر ان كان هنالك جيل من الفرنسيين مدى تلك الحقبة الطويلة لم يشهد تلاميذ الانجيل وهم يفرون أمام هياج المضطهدين المجنون حاملين معهم الذكاء والغنون و العمل والنظام التي تفوقوا فيها تفوقا عظيما ليغنوا بها البلدان التي لجأوا اليها. ويقدر ما أَعْدَقُوا من هذه الهبات على الممالك الاخرى حُرْمِ وطنهم منها. ولو أن كل ما نُقِلَ من فرنسا بقي فيها، ولو بقيت المهارة الصناعية التي كان يملكها هؤلاء المنفيون لتزرع أرضها مدى هذه الثلاث مئة سنة، ولو ظلت هواياتهم الفنية تُصَلح من شأن صناعاتها مدى تلك السنين، ولو أنه في خلال هذه السنين الطوال استخدم ذكاؤهم وقوة ابتكارهم وقوتهم التحليلية العقلية في إغناء آدابهم وغرس علومهم، ولو كانت حكمتهم تهدي بلادهم في مشوراتها، وشجاعتهم تخوض معاركها، ومساواتهم وعدالتهم تكوّن شرائعها، ولو أن ديانة الكتاب المقدس كانت تقوي عقول الشعب وتتحكم في ضمائرهم فما كان أعظم المجد الذي كان اليوم يطوق عنق فرنسا! وكم كانت تصير بلادا عظيمة وناجحة وسعيدة! وكم كانت تصير نموذجا عظيما تنسج على منواله كل الامم!

« لكنّ التعصب العنيد الاعمى طرد من أرضها كل معلم للفضيلة وكل بطل من أبطال النظام وكل مدافع أمين يزود عن العرش. فلأولئك الرجال الذين كانوا يستطيعون أن يجعلوا بلادهم « اسما ومجدا » في الارض، قال التعصب : اختاروا واحدا من هذين: الحرق أو النفي. وأخيرا اكتمل خراب الامة لم يبقَ هنالك رجل ذو ضمير ليُحرم، ولا رجل متدين

ليحرق بالنار، ولا رجل محب لوطنه لينفى بعيدا « (٢٥٤). فكانت الثورة بكل رعبها هي النتيجة الويلة.

ماذا بعد ذلك

« واذ هرب الهيجونوت شمل فرنسا انحطاط عام. فالمدن الصناعية الزاهرة أصابها العطب والخراب، والاقاليم الخصبة استحالت قفاراً، وأعقبت فترة النجاح غير العادي فترة جمود وبلادة عقلية وانحطاط خلقي. وصارت باريس ملجأ كبيراً وبيتاً من بيوت الاحسان. وقدّر بعضهم أنه عند نشوب الثورة وُجد ٢٠٠ ألف صلوك يستجدون الملك. لكنّ الجزويت هم وحدهم الذين نجحوا وازدهرت أحوالهم من دون تلك الامة الخربة المتسوسة، وقد تحكّموا في الكنائس والمدارس والسجون وسفن الرقيق بطغيان رهيب «.

كان يمكن أن يأتي الانجيل لفرنسا بحل صحيح ناجع لكل مشاكلها السياسية والاجتماعية التي أربكت كهنتها ومليكها ومشتريها، وأخيراً أودت بالامة الى الفوضى والدمار. ولكن تحت حكم روما خسر الشعب تعاليم المخلص المباركة عن التضحية والمحبة المنكرة لنفسها. ولقد أبعثوا عن ممارسة انكار الذات لاجل خير الآخرين. فالاغنياء لم يوبخهم أحد على ظلمهم الفقراء، والفقراء لم يجدوا عوناً في عبوديتهم وانحطاطهم. وقد زادت أنانية الاثرياء والاقوياء وصارت أكثر جلاء وجوراً. ولمدى قرون طويلة نجم عن طمع النبلاء وخلاعتهم اغتصاب ساحق للفلاحين. لقد ظلم الاغنياء الفقراء، بينما أبغض الفقراء الاغنياء.

وفي كثير من الاقاليم كان النبلاء مالكي الارض، أما الطبقات العاملة فكانوا مجرد مستأجرين تحت رحمة سادتهم، ومرغمين على إجابة مطالبهم الباهظة. ان عبء اعانة الكنيسة والدولة وقع كله على عاتق الطبقات المتوسطة والفقيرة الذين كانت تفرض عليهم ضرائب فادحة. « وكانت مسرات النبلاء معتبرة القانون الاسمى؛ ويمكن أن يموت المزارعون والفلاحون جوعاً، لكنّ

ظالمهم لم يكونوا يكثرثون لذلك في شيء... وكان الناس مرغمين في كل كبيرة وصغيرة أن يقصروا خدمتهم على مصلحة صاحب الارض. وكانت حياة العمال الزراعيين حياة تعب متواصل، ولم يكن ما يفرج عنهم بؤسهم وشقاءهم. وشكواهم، ان كانوا يتجرأون على الشكوى، كانت تقابل باحتقار وقح. ومحاكم العدل كانت دائما تستمع لشكوى نبيل يقدمها ضد أحد الفلاحين. واشتهر القضاة بقبولهم الرشوة، وأقل مزاج يديه أحد الاشراف كانت له قوة القانون بفضل هذا الفساد العام. والضرائب التي كانت تُغتصب من عامة الشعب بأيدي الوجهاء الدنيويين من ناحية وبأيدي رجال الاكليروس من الناحية الاخرى لم يكن نصفها يجد طريقه الى الخزنة الملكية أو الكنيسة، فكانت المبالغ الباقية تتبدد في الانغماسات الخليعة. أما الذين كانوا يفتقرون رعاياهم فكانوا يُعفون من الضريبة، وكانوا مخولين بموجب القانون أو العادة أن يحتلوا كل وظائف الدولة. كان عدد أفراد الطبقات المحظوظة ١٥٠ ألفا، فلأجل ارضاء هؤلاء كان يُحكم على ملايين من الشعب أن يحيوا حياة منحطة يائسة» (انظر التذييل).

ترف الارستقراطيين ورذائلهم

وكان البلاط الملكي مستسلما للترف والخلاعة. ولم يكن الشعب يثق كثيرا بالحكام، ولا كان الحكام يثقون كل الثقة بالشعب. ولقد حامت الشكوك حول كل اجراءات الحكومة على أنها متأمرة وأنانية. وقبل الثورة بأكثر من نصف قرن كان لويس الخامس عشر متربعا على العرش، وكان يُعتبر حتى في تلك الايام الشريرة ملكا كسولا تافها شهوانيا مستهترا. ولما كان اشراف تلك الامة فاسدين وقساء، والطبقة الدنيا فيها فقراء وجهلة وكانت الدولة مرتبكة في شؤونها المالية والشعب ساخطا وناقما، فلم تكن ثمة حاجة الى عين نبي لترى، من بعيد، الثورة القادمة الوشيكة الوقوع. وكان الملك معتادا أن يقول لمستشاريه الذين كانوا يندرونه بوقوع الكارثة : « اجعلوا كل شيء يسير على سجيته طالما أنا حي، وبعد موتي ليكن ما

يكون «. وعيثة ألحوا عليه في اجراء اصلاح واجب الوقوع. لقد رأى الشرور متفشية، ولكن كانت تعوزه الشجاعة والقوة لصدّها. وكان كلام الملك الكسول الاناني أصدق تصوير للهلاك الذي كان موشكا أن يحل بفرنسا عندما قال : « ومن بعدي الطوفان ! ».

عندما استعانت روما بحسد الملوك والطبقات الحاكمة أثرت عليهم حتى يبقوا الشعب في عبوديته، اذ كانت تعلم جيدا أن هذا يضعف الدولة، وكانت ترمي من وراء تلك الوسيلة الى ابقاء الحكام تحت نير عبوديتها. وبسياستها الواعية والبصيرة بالعواقب أحست أنها لكي تستعبد الناس استعبادا فعلا ينبغي أن تكبل نفوسهم، وأن الطريقة الاكيدة لمنعهم من الافلات من عبوديتهم هي جعلهم غير أهل للحرية. لقد كان الانحطاط الاخلاقي أرهب أضعافا مضاعفة من الآلام الجسدية التي نجمت عن سياستها. واذ حُرّم الشعب من الكتاب المقدس وتُركوا لتعاليم التعصب والانانية فقد لُفوا في أكفان الجهالة والخرافات وغاصوا في أعماق الرذيلة، بحيث غدوا غير مؤهلين لحكم أنفسهم.

حصاد بالدم

لكنّ نتائج هذا كله أتت مختلفة اختلافا بينا عن كل ما كانت تقصده روما أو ترمي اليه، فبدلا من أن يبقى عملها عامّة الشعب خاضعين خضوعا أعمى لتعاليمها صيرّ الناس ملحدين وثوارا. لقد احتقروا الكاثوليكية اذ اعتبروها احتيالا. ورأوا في الاكليروس عصابة تظلمهم وتستعبدهم، والاله الوحيد الذي عرفوه كان اله روما، وكانت تعاليمها هي دينهم الوحيد، واعتبروا أن طمعها وقسوتها هما ثمرة الكتاب المقدس الشرعية ولذلك رفضوا الكتاب .

صوّرت روما صفات الله أسوأ تصوير وحرّفت مطالبه، وها هم الناس الآن يرفضون الكتاب المقدس ومبدعه. وطلبت من الناس أن يؤمنوا ايماننا أعمى بعقائدها مدّعية أنها مصادق عليها من الكتاب. وكان رد الفعل على ذلك أن فولتير وجماعته نشروا سموم الكفر في كل مكان بعدما ألقوا بكلمة الله جانبا. لقد سحقت روما جماهير الشعب تحت قدميها الحديديتين، واذ انقلبوا على طغيانها بعدما انحطوا وتوحشوا ألقوا عنهم كل رادع. فاذا ثار غضبهم على ذلك الخداع البراق الذي قدموا له ولاءهم طوال ذلك الزمن رفضوا الحق والكذب معاً؛ واذ ظنوا واهمين أن الخلاعة هي حرية ابتهج عبيد الرذيلة بحريتهم المزعومة.

عند بدء الثورة تنازل الملك معطيا الشعب حق التمثيل بحيث يتفوقون على النبلاء والاكليروس معا؛ وهكذا رجحت كفتهم، لكنهم لم يكونوا مستعدين أن يستخدموا تلك الميزة بحكمة واعتدال. فاذا كانوا يتوقون الى التعويض عن المظالم التي حلت بهم عولوا على الشروع في تكوين المجتمع من جديد. فذلك الشعب المعتدى عليه، الذين كانت عقولهم ممتلئة بذكريات المظالم المريرة الطويلة التي حاقت بهم، عولوا على أن يحدثوا انقلابا في حالة البؤس التي ما عادوا قادرين على احتمالها، وان يثاروا لانفسهم من اولئك الذين اعتبروهم علة شقائهم وآلامهم. لقد نقل المضطهدون الدرس الذي قد تلقوه تحت الطغيان، فصاروا مضطهدين لمن قد اضطهدهم.

حصدت فرنسا التعسة بالدم البذار الذي زرعته. وكانت نتائج خضوعها لسلطان روما وسيطرتها رهيبية، ففي المكان الذي فيه نصبت فرنسا أول ركيذة لحرق الشهداء عند بدء الاصلاح بايعاز من الكاثوليكية أقامت الثورة أول مقصلة لها. وفي البقعة نفسها التي أحرق فيها الشهداء البروتستانت الاولون في القرن السادس عشر سقطت أولى ضحايا المقصلة في القرن الثامن عشر. ان فرنسا اذ قاومت الانجيل الذي كان يمكن أن يأتيها بالشفاء فتحت الباب للالحاد والدمار. فعندما ألقى بروادع شريعة الله جانبا وجد أن قوانين الناس غير كافية لصد سيول الغضب البشري القوية الجارفة، فانسأقت الامة في تيار الثورة

والفوضى. والحرب التي ثارت ضد الكتاب المقدس بدأت عهدا يدعو تاريخ العالم « عهد الرعب ». لقد نُفي السلام والسعادة بعيدا من بيوت الناس وقلوبهم. ولم يكن أحد يحس بالطمأنينة، فالذي يكون منتصرا اليوم يُشك فيه ويدان غدا. لقد كان للظلم والقسوة والشهوة سيادة لا ينازعها فيها منازع.

وقد أرغم الملك والاكليروس والنبلاء على الخضوع لفظائع ذلك الشعب الثائر المجنون. فتعطشه الى الانتقام كان قتل الملك شرارته الاولى، والذين قرروا موته ماتوا شنقا بعد ذلك. ووقعت مذبحه عامة كان ضحاياها كل من اشتبه فيهم أنهم أعداء الثورة. وازدحمت السجون بالناس، وفي وقت ما كانت تضم بين جدرانها أكثر من مئتي ألف أسير. وقد امتلأت مدن المملكة بمشاهد الرعب، وكان أحد أحزاب الثوار يعادي حزبا آخر، فصارت فرنسا ميدانا فسيحا للقوات المتضاربة التي تسلط عليها الغضب والاهتياج. « ففي باريس كان يجيء شغب في أثر شغب، وكان الاهالي ينقسمون الى خليط من الاحزاب التي كان بعضها يصر على استئصال البعض الآخر ». ومما زاد من يؤس الشعب أن الامة كانت مشتبكة مع جيوش أوروبا العظيمة في حروب طويلة مدمرة. « كانت البلاد على شفا الافلاس، وكانت الجيوش تصرخ مطالبة بمرتباتها المتأخرة، وكان أهل باريس يتضورون جوعا، وقد خرب اللصوص مدن الاقاليم، وكادت المدنية تنطفئ في بحر من الفوضى والفجور ».

لقد تعلم الشعب جيدا دروس القسوة والتعذيب التي لقتهم اياها روما بكل اجتهاد. وها قد جاء يوم الجزاء اخيرا. فلم يكن تلاميذ يسوع هم الذين يساقون الآن الى السجون أو يُسحبون ليحرقوا. لقد مات هؤلاء أو طردوا الى المنفى منذ عهد بعيد. والآن أحست روما القاسية التي لا ترحم بالقوة المهلكة التي لأولئك الذين دربتهم على أن يسروا بسفك الدماء. « ان مثال الاضطهاد الذي قدمه رجال الاكليروس الفرنسيون مدى عصور طويلة ارتد الآن عليهم بقوة عظيمة. لقد تلطخت المشانق بدماء الكهنة. وسفن الرقيق والسجون التي امتلأت بالهجونوت امتلأت الان بمضطهديهم. واذ أوثق

رجال الاكليروس الكاثوليك الى المجاذيف كأرقاء في السفن اختبروا اذ ذاك كل الولايات والألام التي أسرفت كنيستهم في ايقاعها بالهرطقة الودعاء» (انظر التذييل).

حينئذ جاءت الايام التي فيها سنّتْ أعظم المحاكم وحشية أعظم القوانين وحشية، عندما لم يكن انسان يستطيع أن يحيي جاره أو يتلو صلواته... من دون أن يرتكب جريمة عقابها الموت، وكان الجواسيس يتربصون في كل ركن، وظلت المقصلة تقوم بعملها الرهيب وقتاً طويلاً كل صباح، وتكسد الاسرى في السجون كما يتكسد الرقيق في سفن العبيد، وجرت دماء الضحايا في القنوات لتصب في نهر السين... وفيما كانت العربات تسير في شوارع باريس محملة بشحناتها من الضحايا الذاهبين ليلقوا حتفهم كان الولاة الذين أرسلتهم اللجنة الملكية الى المقاطعات يعربدون بقسوة بالغة لم تشهد لها العاصمة مثيلاً. فسكين تلك الآلة المخيفة كانت، في نظرهم، أبطاً مما ينبغي في ادائها عملية القتل الرهيبة. لقد حصدت طلقات الرصاص صفوفاً طويلة من الاسرى، وكانت تُحدث ثقب في أسفل السفن التي تكسد فيها الاسرى بقصد اغراقها. واستحالت مدينة ليون الى بركة قفراء. وفي مدينة آراس حُرِم السجناء من الرحمة القاسية وهي الموت السريع. وعلى طول نهر اللوار من سومور الى البحر كانت أسراب الغربان والحدأة تنهش الجثث العارية المتعاقبة معا في وضع شنيع. لم تكن هنالك رحمة لجنس أو لسن. وعدد الفتيان والفتيات البالغين السابعة عشرة من العمر الذين قتلتهم تلك الحكومة الممقوتة، بلغ عدة مئات. والاطفال الذين كانوا يُنتزعون من على صدور أمهاتهم كانت تتلقفهم الحراب والرماح التي كانت تحملها فرق اليعقوبيين» (انظر التذييل). ففي أثناء مدة قصيرة من الزمن لم تتعدَّ العشر سنوات هلكت جماهير غفيرة من بني الانسان.

هذا كله كان وفق رغبة الشيطان. فعلى مدى عصور طويلة كان يتعب جاهدا لتحقيق هذه النتيجة. ان سياسته هي المخاتلة والخداع من البدء الى النهاية، وقصده الثابت هو أن يجلب على الناس الويل والتعاسة، ويشوه عمل الله

ويفسده ويتلف ويعطل مقاصد الرحمة والاحسان الالهية، وهكذا يسبب الحزن لساكني السماء. وحينئذ يعمي عقول الناس بأساليبه الخادعة ويجعل الناس يلقون اللوم على الله كما لو أن كل هذا الشقاء هو نتيجة تدبير الخالق. وبهذه الطريقة نفسها عندما يظفر بحريتهم اولئك الذين انحدروا الى حال الانحطاط والوحشية يلح عليهم أن يعمدوا الى اتخاذ جانب الافراط وارتكاب الفظائع. حينئذ يشير الطغاة والظالمون الى صورة الخلاعة الجامحة هذه على أنها مثل من أمثلة نتائج الحرية.

عندما يُكتشف الضلال في زي ما يلبسه الشيطان زيا تنكريا آخر، فيتلقفه جماهير من الناس بكل شوق كما في الأول. فعندما اكتشف الناس أن الكاثوليكية خداع، وعجز الشيطان بهذه الوسيلة عن جعل الناس يتعدون شريعة الله دفعهم الى الاعتقاد ان كل دين هو مخاتلة وان الكتاب المقدس حديث خرافة، وهكذا اذ ألقى الناس عنهم روادع شريعة الله أسلموا أنفسهم الى الاثم الجامح.

ان الغلطة المميتة التي تسببت بكل تلك الولايات لسكان فرنسا كانت تجاهل هذا الحق العظيم القائل ان الحرية الحقيقية ينبغي أن تكون داخل نطاق نواهي شريعة الله « ليتك أصغيت لوصاياي فكان كنهر سلامك وبرك كلجج البحر»، « لا سلام قال الرب للاشرار»، « أما المستمع لي فيسكن آمنا ويستريح من خوف الشر» (أشعيا ٤٨ : ١٨ و ٢٢ ؛ أمثال ١ : ٣٣).

إن الكفار والملحدين والمرتدين يعارضون شريعة الله وينبذونها، لكنّ نتائج تأثيرهم تبرهن أن خير الانسان مرتبط بالطاعة لوصايا الله. والذين يرفضون أن يتعلموا هذا الدرس من كتاب الله يلتزمون تعلمه من تاريخ الأمم.

مصدر البؤس

عندما استخدم الشيطان كنيسة روما لابعاد الناس عن الطاعة فقد كانت وسيلته مختفية، وقد أخفى عمله بحيث أن الانحطاط والشقاء اللذين نتجا من ذلك لم يظهر انهما نتيجة العصيان والتمرد. وأبطلت قوته وسلطانه بواسطة روح الله بحيث امتنع عليه نيل مرامه من كل مقاصده ولم يتتبع الشعب التأثير الى مسبباته، ولا اكتشفوا منشأ ويلاتهم وشقائهم. ولكن في الثورة جاهرت الجمعية الوطنية بطرح شريعة الله جانبا. وفي حكم الرعب الذي تبع ذلك استطاع جميع الناس رؤية التفاعل بين السبب والنتيجة.

عندما جاهرت فرنسا برفضها الله وألقت بالكتاب المقدس جانبا ابتهج الناس الاشرار، وأرواح الظلمة فرحت بما قد حصلت عليه من الغرض الذي ظلت تهدف اليه طويلا : مملكة حرة من روادع شريعة الله ولان القضاء على العمل الرديء لا يجري سريعا فلذلك « امتلأ قلب بني البشر فيهم لفعل الشر » (جامعة ٨: ١١). لكن كسر الشريعة العادلة البارة لا بد أن ينتج منه الشقاء والدمار. ومع أن شر الناس لم يفتقد بالقضاء في الحال الا انه بكل تأكيد كانت ستنتجم عنه الدينونة. وان عصور الارتداد والجريمة كانت تذخر غضبا ليوم الغضب، وعندما فاض مكيال اثمهم عرف محتقرو الله، بعد فوات الفرصة، أنه أمر مخيف جداً أن ينهكوا صبر الله. ان روح الله الرادع الذي يفرض كبحا لقوة الشيطان القاسية كان قد رفع الى حد كبير، ولذلك سمح لذلك الذي يسر بشقاء الناس أن يتمم ارادته. فالذين اختاروا خدمة التمرد تركوا ليحصدوا ثماره حتى امتلأت البلاد بجرائم رهيبه جدا بحيث يعجز قلم الكاتب عن وصفها. ولقد ارتفعت من جوانب كل الاقاليم المقفرة والمدن المخربة صرخة مخيفة، صرخة مرة رهيبه. لقد اهتزت فرنسا كما من زلزلة هائلة. فالدين والشريعة والنظام الاجتماعي والاسرة « الخاطئ والدولة والكنيسة، كل هذه مُحقت بقوة يد عاقبة ارتفعت لمحاربة شريعة الله لقد نطق الحكيم حقا حين قال: « أما الشرير فليسقط بشره »، وان عمل شرا مئة مرة

وطالت أيامه الا أنني أعلم أنه يكون خير للمتقين الله الذين يخافون قدامه. ولا يكون خير للشرير» (أمثال ١١ : ٥ ؛ جامعة ٨ : ١٢ و ١٣). « ابغضوا العلم ولم يختاروا مخافة الرب »، « فلذلك يأكلون من ثمر طريقهم ويشبعون من مؤامراتهم » (أمثال ١ : ٢٩ و ٣١) .

فرنسا تعود الى الانجيل

ان شاهدي الله الامينين اللذين قتلهما الوحش المجدف « الخارج من الهاوية » ما كانا لبيقيا صامتين طويلا، فانه « بعد الثلاثة الايام والنصف دخل فيهما روح حياة من الله فوقفا على أرجلهما ووقع خوف عظيم على الذين كانوا ينظرونهما » (رؤيا ١١ : ١١). في عام ١٧٩٣ صادقت الجمعية الفرنسية على مرسوم الغاء الدين المسيحي والاستغناء عن الكتاب المقدس. ولكن بعد ذلك بثلاث سنين ونصف اصدرت الهيئة نفسها قرارا آخر يلغي هذا المرسوم ويبيح تداول الكتاب المقدس. لقد وقف العالم مشدوها أمام الجرائم الهائلة التي ارتكبت في فرنسا لرفضها الكتاب المقدس، واعترف الناس بضرورة الايمان بالله وكلمته بما أنهما أساس الفضيلة والخلق الكريم. لقد قال الرب : « من عيرت وجدفت وعلى من عليت صوتا وقد رفعت الى العلاء عينيك على قدوس اسرائيل » (أشعيا ٣٧ : ٣٢). « لذلك هأنذا أعرفهم هذه المرة أعرفهم يدي وجبروتي فيعرفون أن اسمي يهوه » (ارميا ١٦ : ٢١).

وفي ما يختص بالشاهدين يعلن النبي بعد ذلك قائلا : « وسمعوا صوتا عظيما من السماء قائلا لهما اصعدا الى ههنا. فصعدا الى السماء في السحابة ونظرهما اعداؤهما » (رؤيا ١١ : ١٢). فمذ حاربت فرنسا شاهدي الله حصلا على كرامة لم يحصلوا عليها من قبل. ففي عام ١٨٠٤ نُظمت جمعية التورات البريطانية والاجنبية وتبع ذلك منظمات أخرى مثلها، وصارت لها فروع عديدة في قارة أوروبا. وفي عام ١٨١٦ تأسست جمعية التوراة

الامريكية. ولما تكونت جمعية التوراة البريطانية طبع الكتاب ووزع في خمسين لغة. ومنذ ذلك الوقت ترجم الى أربع مئة لغة ولهجة (انظر التذييل).

في الخمسين سنة التي سبقت عام ١٧٩٢ لم يُبدِ الناس اهتماما كبيرا بالإرساليات الاجنبية. ولم تشكل جمعيات جديدة، ولم يكن غير قليل من الكنائس التي بذلت مجهودا لنشر المسيحية في البلدان الوثنية. ولكن حوالي نهاية القرن الثامن عشر حدث تغيير عظيم. ما عاد الناس قانعين بنتائج الدين العقلي ولا أشبعتهم ثماره، وتحققوا من لزوم الاعلان الالهي والدين الاختباري. فممنذ ذلك الحين نما عمل الإرساليات الاجنبية نموا لم يسبق له مثل (انظر التذييل).

هذا فضلا عن أن التحسينات التي أدخلت على الطباعة أكسبت عمل توزيع الكتاب قوة دافعة. ثم ان التسهيلات المتواصلة في المواصلات بين البلدان المختلفة، ونقض سياحات التعصب والانطواء القومي القديمة، وحرمان بابا روما من استخدام السلطة الدنيوية، كل هذا أفسح الطريق لدخول كلمة الله. ولبضع سنين ظل الكتاب المقدس يباع في شوارع روما بلا مانع، وها هو يُحمل الآن الى كل أنحاء المسكونة.

لقد تشدق فولتير الكافر مرة وقال في زهو : « لقد سئمت مما يردده الناس مرارا قائلين ان اثني عشر رجلا قد أقاموا دعائم الدين المسيحي. ولكني سأبرهن أن رجلا واحدا يكفي لهدم هذا الدين ». وقد مرت أجيال منذ مات. واتحد ملايين الناس في محاربة الكتاب المقدس، ولكنه أبعد وأمنع من أن يتلاشى بحيث أنه في حين كانت توجد من كتاب الله مئة نسخة في أيام فولتير، يوجد الان عشرة آلاف، بل مئة ألف نسخة. قال أحد المصلحين الاقدمين عن الكنيسة المسيحية : « ان الكتاب المقدس هو السندان الذي قد أبلى وحطم كثيرا من المطارق ». وقد قال الرب : « كل آلة صورت

ضدك لا تنجح وكل لسان يقوم عليك في القضاء تحكمن عليه « (اشعيا ٥٤ : ١٧).

« أما كلمة الهنا فتثبت الى الابد »، « ... كل وصاياه أمينة. ثابتة مدى الدهر والابد مصنوعة بالحق والاستقامة » (أشعيا ٤٠ : ٨؛ مزمور ١١١ : ٧، ٨). كل ما بينى على سلطان الانسان مصيره الهدم والانهيار، أما ما بينى على صخرة كلمة الله الثابتة فسيبقى الى الابد.